Gentrifiers[1] راديكاليّون: المشهد المتحوّل للنشاط الاجتماعيّ في يافا

دانيئيل مونتيريسكو*

عُرفت يافا تاريخيًّا بِـ "عروس البحر"، واعتُبرت المركز المدينيّ الأكبر في فلسطين ورمز الحداثة السياسيّة في حقبة ما قبل العام 1948 (LeVine, 2005). وبسبب التوسّع الصهيونيّ، خضع المتروبولين العربي لتحوّلات راديكاليّة عندما جرى تهجير الغالبيّة العظمى من السكّان (بما في ذلك غالبيّة النخب المحلّيّة) خلال الأعمال العدائيّة في العام 1948. لم يتبقَّ في يافا من سكّانها الفلسطينيّين الأصليّين سوى 3500 نسمة من أصل نحو 100,000 نسمة. يافا التي شكّلت ميناء إقليميًّا ومركزَ تجارة عالميًّا في الحقبة العثمانيّة الأخيرة والانتداب البريطانيّ تحوّلت -بين عشيّةٍ وضُحاها- إلى الحيّ رقم "7" السيّئ الصيت والآيل للسقوط، "الحيّ العربيّ" لمدينة تل أبيب.

اليوم، بعد مرور أكثر من 60 عامًا على النكبة، تُعتبر يافا "مدينة مختلطة" من الناحية الإثنيّة (Rabinowitz & Monterescu, 2008)، ويسكن فيها نحو 17,000 فلسطينيّ من مواطني إسرائيل (بيانات بلديّة تل أبيب- يافا، 2012)، ويشار إليها كمكان فريد من نوعه، وَ "مُغاير" من الناحيتين الثقافيّة والسياسيّة. يشكّل المجتمع المحلّيّ الفلسطينيّ نسبة 5% من المجموع السكّانيّ العامّ

[1] Gentrification: الكلمة مشتقة من كلمة gentry والتي تعني الطبقة العليا، أو طبقة النبلاء. يدور الحديث عن ظاهرة (أو سيرورة) يدور رحاها في المدن الكبيرة، حيث تبدأ شرائح سكّانية ميسورة الحال من الطبقة المتوسطة- العليا وسماسرة بشراء العقارات في حي فقير ومهمل (بسبب جاذبية الموقع كقربه من البحر، [كما في حالة يافا]، او بسبب مشاريع تحسينية تُطلقها السلطة المحلّيّة، أو بسبب الأسعار المتدنّية للعقارات). عندها تبدأ أسعار الشقق بالارتفاع تدريجيا مما يتسبب في الكثير من الأحيان بمغادرة السكّان الأصليين للحي في بحثهم عن شقق وخدمات أقل تكلفة. هذه الظاهرة تنتشر في المدن الأمريكية والأوروبية الكبيرة، ولا تُعرف ظاهرة مماثلة لها في الأقطار العربيّة. وجدنا صعوبة في " تعريب" المصطلح بكلمة واحدة تحمل المعنى المقصود، لذا ارتأينا في هذه المرحلة الإبقاء على هذا المصطلح، واشتقاقاته المختلفة باللغة الإنجليزية.(المترجم)

في تركيبة متروبولين تل أبيب، ونحو ثلث سكّان مدينة يافا، ويكافح هذا المجتمع منذ العام 1948 من أجل الحفاظ على وجود جماعيّ قابل للحياة والنموّ. بالنسبة للبلديّة والدولة، شكّلت يافا العربيّة منذ زمن بعيد "مشكلة" سياسيّة، وهو ما دفع مؤسّسات السلطة إلى تبنّي إستراتيجيّات متكرّرة من التطويق والرقابة والسيطرة، وعادة ما يصف أعضاء المجتمع العربيّ في يافا أنفسهم كَـ "أقلّيّة مزدوجة" يجري إقصاؤها مرّتين: الأولى على المحور القوميّ من قِبَل مؤسّسات الدولة، والثانية على مستوى السلطة المحلّيّة وسياسة بلدية تل أبيب تجاههم. في غياب قيادة موحّدة، وعدم وجود طبقة وسطى ثابتة تتحدّث باسمهم، يتوق الفلسطينيّون إلى الحصول على مساكن بأسعار معقولة، والحصول على الاعتراف السياسيّ.[2]

شَهِدَ العَقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين عددًا من الأحداث المركزيّة في المدن المختلطة من الناحية الإثنيّة. شكّلت أحداث أكتوبر عام 2000 واندلاع هبّة الأقصى تحوّلاً مهمًّا في تاريخ الأقلّيّة الفلسطينيّة في إسرائيل. الأحداث التي اندلعت في يافا وحيفا والرملة واللدّ وعكّا لم تتمخّض عن إصابات وأضرار خطيرة، لكنّها كشفت النقاب عن الفجوة الآخذة في الاتّساع، وعن أزمة الثقة العميقة بين هذه المدن اليهوديّة والسكّان العرب فيها، وعن التدخّل الفظّ الذي تمارسه أذرع الدولة البوليسيّة.

شهدت الأزمة المتواصلة في يافا مزيدًا من التفاقم والتصعيد عندما قامت دائرة أراضي إسرائيل في العام 2007 بإصدار 497 أمر إخلاء لعائلات فلسطينيّة في يافا بذريعة البناء غير القانونيّ.[3] وبما أنّ هذه العائلات كانت تعيش في حيّ العجمي، وهو الحيّ الذي تَحوَّلَ إلى بؤرة الـgentrification (أنظروا الملاحظة أدناه) اليهوديّة الساخنة، نظر السكّان إلى عمليّة الإخلاء كمسعى إضافيّ لتنفيذ عمليّة ترانسفير للسكّان العرب إلى خارج يافا (الشكل "1"). سرعان ما تحوّل هذا الأمر إلى رمز النضال من أجل الوجود الفلسطينيّ، والعلامة الفارقة لمقاومة عمليّة الـ gentrification الإثنيّة.

---

[2] بسبب الانقسامات في المنظومة السياسيّة العربيّة في يافا، والخلافات المتكرّرة بين ممثّلي المجتمع المحلّيّ هناك، فقدت قائمة يافا مقعدها في المجلس البلديّ في الانتخابات المحلّيّة عام 2013. ومقابل 3,717 صوتًا حصلت عليها في انتخابات العام 2008، لم تتمكّن القائمة من الحصول على أكثر من 2,195 صوتًا في العام 2013.

[3] راجِعوا بروتوكولات لجنة الشؤون الداخليّة البرلمانيّة على الرابط التالي:

www.knesset.gov.il/protocols/data/rtf/.../2007-03-20.rtf

التعبئة الجماعيّة حول هذا الحدث المؤسِّس ضمّت ناشطين فلسطينيّين ويهود من يافا وأماكن أخرى، وفتحت فضاء فعّالاً للعمل السياسيّ ولأشكال أخرى من التعاون الثنائيّ القوميّة (Monterescu & Shaindlinger, 2013). في العام نفسه، بالتفاعل مع سياسات التهجير الحكوميّة، أُقيمت في يافا مستوطنة مدينيّة من خلال دعوة ناشطين يهود شبّان من المعسكر القوميّ المتديّن إلى "افتداء وتخليص" المدن المختلطة، وإعادة "التوازن الديمغرافيّ" إلى سابق عهده (Barak, 2011). هذه المقالة المقتضبة ترسم بخطوط عريضة نزعتين مركزيّتين تدور رحاهما في يافا: ولادة حركة مستوطنين مدينيّة راديكاليّة، والتحالف بين ناشطين فلسطينيّين وأفراد يهود مسيّسين، حيث يمكن تصنيف العديد منهم كمن قدموا للسكن في يافا تحت مظلّة الـ gentrification، وعليه فقد تحول المدافعون عن ضحايا التهجير إلى جزء من مسبّباته.

"تخليص وافتداء" المدينة المختلطة

في أعقاب الانسحاب من غزّة في العام 2005، أطلقت الحركة الاستيطانيّة اليهوديّة حملة "إعادة احتلال" (*Reconquista*) المدن المختلطة. مدفوعة بدعم سخيّ من الحكومة ومنظّمات خاصّة كجمعيّة "روش يهودي" ("رأس يهوديّ")، نمت مجتمعات استيطانيّة محلّيّة في الرملة ("عميحاي")، واللدّ ("إلياشيف")، وعكّا ("أوميتس") ويافا ("شيرات موشيه") (نفس المصدر). بعد انطلاقها في العام 2007، أصبحت المستوطنة اليهوديّة في يافا تضم 51 عائلة تنتشر في أحياء يهوديّة وأخرى مختلطة. تدير هذه المستوطنة موقعًا إلكترونيًّا (http://www.jjjaffa.com) تحت الشعار "إعادة بناء المجتمع التوراتيّ" (الرسم 2). تلاعبت البيشيفاه على المستوى الإستراتيجيّ بما أطلقت عليها "أجِنْدَة تل أبيب كمدينة متعددة الثقافات"، على حساب الجمهور الفلسطينيّ. في زيارة أجراها مع رئيس البلديّة حولدائي في حيّ العجمي، قال رئيس اليشيفاه في الحيّ الحاخام ماليّ (حاخام مستوطنة بيت إيل سابقًا): "يحقّ للجميع الحصول على معاملة لائقة باستثناء مَن هم أعداء شعب إسرائيل" (Kempinsky, 2011). تدعو الحركة إلى تخليص المدن المختلطة من إرثها العربيّ وإعادة بناء الهيمنة اليهوديّة،[4] وذلك من خلال إبراز صورة الحاخام كوك، أحد مؤسّسي

[4] راجعوا: http://cafe.themarker.com/post/1460551/ and http://www.yaffo.co.il/article_k.asp?id=246

الحركة الصهيونيّة الدينيّة وحاخام يافا في الفترة الواقعة بين العامين 1904-1916 (انظروا الرسم "3").

في شهر أيّار عام 2009، فازت شركة "بإمونا" ("بالإيمان") بمناقصة دائرة طرحتها أراضي إسرائيل لإقامة مشروع إسكانيّ في حيّ العجمي. بعد عامين من النضال القانونيّ، رفضت دائرة أراضي إسرائيل والمحكمة العليا التماسًا تقدّم به 28 مواطنًا من يافا، وجمعيّة "بمكوم"، وجمعيّة حقوق المواطن في إسرائيل، واعتبرتا أنّ المسألة أصبحت "أمرًا واقعًا" ("fait accompli") (الرسم "4"). بدأ العمل في المشروع الذي سيعرض نحو 20 شقّة لليهود المتديّنين دون سواهم، ويُتوقّع أن تستكمل عمليّة البناء في العام 2015.

Gentrifiers ضدّ الـGentrification

في أعقاب أحداث أكتوبر العام 2000، بدأت مدينة يافا تلفت الأنظار كفضاء للتعبئة السياسيّة، الأمر الذي حوّلها إلى موضع استقطاب لمجموعات مختلفة كانت قد عبّرت عن رغبتها واهتمامها بالتعاون اليهوديّ- العربيّ من خلال السكن الفعليّ في المدينة. وقد شملت هذه المجموعات: كومونات هيبيّة تبحث عن الغرائبيّة الجذّابة (exoticism) الشرق أوسطيّة والمتعدّدة الثقافات (وهي مجموعة استوطنت في يافا منذ التسعينيّات)، ويساريّين أفرادًا جاءوا مدفوعين بأيديولوجيا تطبيق التعايش المشترك على أرض الواقع، وكومونات شابّة ثنائيّة القوميّة؛ والأزواج المختلطين من العرب واليهود الذين لا يستطيعون العثور على مكان لهم في تل أبيب. وأخيرًا، اجتذبت أحداث أكتوبر العام 2000 مجموعات سياسيّة من الفلسطينيّين والإسرائيليّين المنخرطين مباشرة في النشاط المتعلّق بالصراع كمجموعة أناركيّين (لا سلطويّين) ضدّ الجدار، وجمعيّة "ريعوت - صداقة"، ومنظّمة "تعايش"، وجمعيّة "زوخروت - ذاكرات". الدور الحاسم الذي يقوم به الناشطون العرب واليهود القادمون من خارج المدينة ملحوظٌ جدًّا. وعلى الرغم من أنّ هذه المجموعات تبنّت مسارات سياسيّة مختلفة وروّجت لأجندات متباينة، تقاسمت افتتانًا مشتركًا بما تعرضه هذه المدينة المتنازَع عليها من معانٍ وأهداف كامنة، إن كان ذلك من خلال العمل السياسيّ، أو بالبحث عن الذات على المستوى الفرديّ.

مقابل توأم القوى المتمثل في المستوطنين والـ gentrifiers، ظهر في الواجهة لاعبون جدد ممّن ساروا على خطى التحالفات الجديدة، وظهر في المدينة وجود أعداد متزايدة من الناشطين اليهود الجدد، إلى جوار العمل السياسيّ الفلسطينيّ في يافا الذي كان مُمَأسَسًا للغاية، من خلال نشاطات رابطة عرب يافا المتواصلة منذ أواخر سبعينيّات القرن الماضي، واللجنة الشعبيّة للدفاع عن الأرض والمسكن "دارنا" التي تأسّست في العام 2007. وقد حدّثني أحد الموسيقيّين المَقْدسيّين السابقين الذي انتقل للسكن في يافا في العام 2007، قال: "لقد انتقل جزء كبير من المشهد الراديكاليّ من القدس إلى مدينة يافا". في ظاهرة هي بمثابة الصورة المعاكسة للاهتمام الجديد للمستوطنين اليهود بالمدن المختلطة، بدأ يهود من ذوي الميول اليساريّة ينشطون في أعمال مناهضة للـ gentrification في وقت شكّلوا فيه هم أنفسهم جزءًا من هذه العمليّة التي اجتاحت المدينة، ويقومون من خلال نشاطهم هذا بعرض المدينة كفضاء ثقافيّ مغاير. بعض هؤلاء اختاروا عمدًا "العيش داخل الجرح المفتوح"، كما صاغ أحد الـ gentrifiers هذا الأمر، أي من خلال تجنيد الذاكرة والصدمة كوسائل تعبيريّة في الفنّ السياسيّ. من الأمثلة المهمّة على ذلك مشروعُ "شبح حيّ المنشيّة يستيقظ" للفنّان رونين إيدلمان (2007) الذي استُخدِمت فيه أدوات بسيطة، كعربات ترسيم الخطوط البيضاء في ملاعب كرة القدم، وعجلات تُستخدم في صبغ المنازل، وكلّ ذلك ابتغاءَ رسم حدود حيّ المنشيّة الفلسطينيّ المدمّر. هذا المشروع شكّلَ وسيلةً للاحتجاج على محو الحيّ عن بكرة أبيه، وتخيّل إعادة بنائه. على الرغم من كلّ ذلك، وبالنسبة للكثيرين، يتمازج الالتزام السياسيّ تجاه يافا مع ولادة فضاءات استهلاك جديدة.

أحد أهمّ النواتج التي تمخّضت عنها أحداث أكتوبر هو إقامة مقهى يافا، ويُعتبر المكتبة التجاريّة الأولى التي أقيمت منذ العام 1948 وتتخصّص في الكتب باللغة العربيّة. مقهى يافا تديره دينا؛ وهي gentrifier يهوديّة، وشريكها الفلسطينيّ في المشروع ميشل الراهب. هذا المقهى فتح الطريق لإقامة مؤسّسات ثقافيّة أخرى تدمج بين الجانب التجاريّ والترفيه والتسلية، بغية استعادة الفضاء الثقافيّ الفلسطينيّ. المقاهي والنوادي التي على شاكلة مقهى أبو ظبي كايماك النباتيّ النزعة، وحانة آنا لؤلؤ الكوزموبوليتيّة، ومقهى سلمى الفلسطينيّ، كلّها تشير إلى الناتج غير المقصود للصراع ولسياسة التهجير الموجّهة نحو الأهداف الربحيّة. المساعي الأخيرة (نحو: "حركيّة فوريّة") تُدخل المزيد من التعقيد على هذه الوشائج، وذلك أنّها توجّه النشاط الثقافيّ والترفيهيّ مباشرة إلى قلب

العمل السياسيّ.[5]

النشاط المناهض للـ gentrification، والثقافة البديلة، يعكسان عمليّة تسييس راديكاليّة للمشهد المدينيّ، ومسارًا مضاداً للاستيطان اليهوديّ المدينيّ. لا تُمْكِن قراءة هذه المسارات كظاهرة منعزلة، بل إنّها تُقرَأ كجزء من إعادة إضفاء المعنى للمدن المختلطة كفضاءات للعمل السياسيّ.

* **د. دانيئيل مونتيريسكو** هو محاضِر وأستاذ في الجامعة الأوروبيّة في بودابست، المجر.

[5] تحت شعار "موسيقى// فنّ// نضال// احتفال مسيّس// المعركة على البيت،" شكّل الحدث مشروعًا مشتركًا لحانة آنا لؤلؤ ومشروع يافا- "سيرة مدينة". أجري الحدث في أيلول من العام 2012 في مسرح السرايا العربيّ- اليهوديّ. وورد في الدعوة: "لمساء واحد سنُحْيي البلدة القديمة في يافا من موتها السرمديّ لمساء أوضح، ولمستقبل متخيَّل أفضل لا يتنازل عن علاقته بالمحيط العربيّ. حركة موسيقى وفنّ واعيين من وين أجوا ولوين رايحين." رصد ريع الحفل لتغطية المصروفات القانونيّة للّجنة الشعبيّة للدفاع عن الأرض والمسكن "دارنا".

للاستزادة في هذا الشأن، راجعوا الموقع التالي:
https://www.facebook.com/events/443623622347895/?ref=ts

المراجع

Barak, T. (2011, December 23). Project Ha-Gar'in. 7 *Yamim*, 24-28.

Eidelman, R. (2007). *The Ghost of Manshia Awakes.* Retrieved from http://roneneidelman.com/?p=191.

Kempinsky, Y. (2011, January 6). The Jewish settlement returns Jaffa to its past glory. *Arutz,* 7. Retrieved from http://www.inn.co.il/News/News.aspx/213792

LeVine, M. (2005). *Overthrowing Geography: Jaffa, Tel-Aviv and the Struggle for Palestine 1880-1948.* University of California Press.

Monterescu, D. (2011). Estranged Natives and Indigenized Immigrants: A Relational Anthropology of Ethnically Mixed Towns in Israel/Palestine. *World Development*, *39*(2), 270-281.

Monterescu, D. (2009a). The Bridled Bride of Palestine: Orientalism, Zionism and the Troubled Urban Imagination. *Identities: Global Studies in Culture and Power, 16*(6), 643-677.

Monterescu, D. (2009b). To Buy or Not to Be: Trespassing the Gated Community. *Public Culture, 21*(2), 403-430.

Monterescu, D. and Shaindlinger, N. (2013). Situational Radicalism: The Israeli “Arab Spring” and the (Un)Making of the Rebel City. *Constellations: An International Journal of Critical and Democratic Theory*, *20*(2), 40-65.

Rabinowitz, D. and Monterescu, D. (2008). Reconfiguring the ‘Mixed Town’: Urban Transformations of Ethno-National Relations in Palestine/Israel. *International Journal of Middle East Studies (IJMES)*, *40*(2), 195-226.

Tel-Aviv-Jaffa Municipality. (2012). Statistical Report. Retrieved from http://www.tel-aviv.gov.il/TheCity/Pages/StatisticalReview2012.aspx

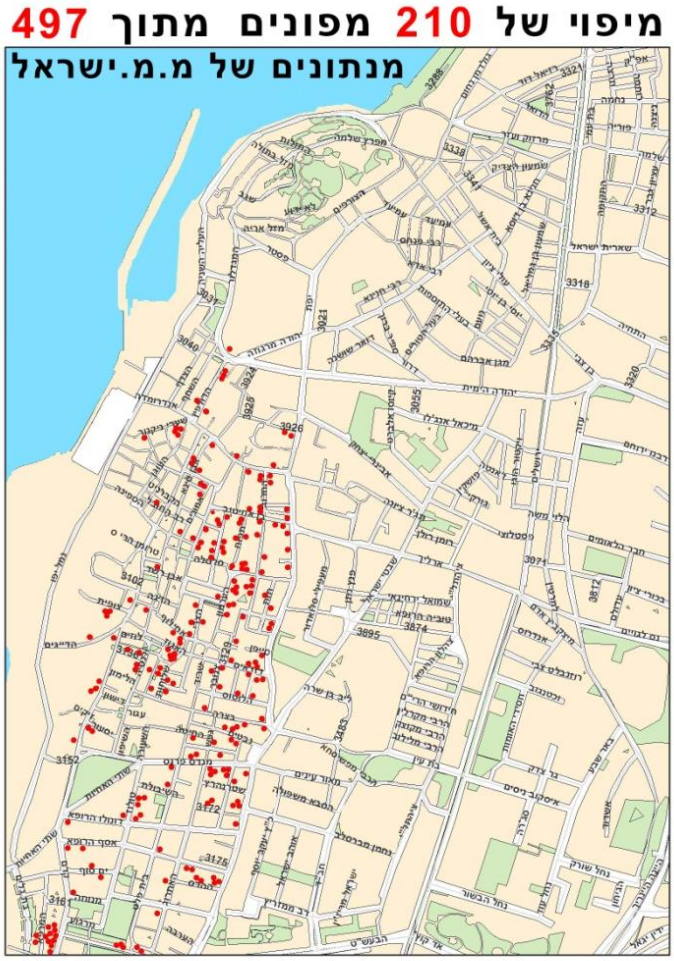

الرسم "1": خريطة مخطّط لدائرة أراضي إسرائيل لإجلاء 497 عائلة فلسطينيّة عن منازلها (جرى توزيعها من قبل اللجنة الشعبيّة للدفاع عن الأرض والمسكن).

الرسم "2": الختم التاريخيّ للجالية اليهوديّة في يافا (1892) تتصدّرها الجملة التوراتيّة: حتّى يكون البحر الكبير حدودكم" (على اليسار)، ولوغو المستوطنة اليهوديّة في يافا (إلى اليمين): "إعادة بناء المجتمع اليهوديّ التوراتيّ- يافا" (2012).

الرسم "3": لوغو اليشيفاه في يافا مبرزًا صورة الحاخام كوك، حاخام مدينة يافا قرابة العام 1904.

الرسم "4": الجرافيتي على الصورة: أيّها المستوطنون اخرجوا من هنا. الخليل ليست هنا. يافا ليست عقارات" (2012).